٣ - ملك مقدونيا وخطيب أثينا

كان فيليب ملكا لمقدونيا فى شمال بلاد اليونان أو بالأحرى فى حوض نهر الدانوب ، وكان له عين واحدة ، كما أنه كان مصابا بالعرج فى إحدى ساقيه . ولم تكن أى عاهة من هاتين العاهتين تسبب للملك المقدونى أى حرج ، إذ كانت كل منهما نتيجة إصابة فى معركة من المعارك التى كان يخوضها الملك فيليب . وأفضت كثرة المعارك التى خاضها إلى اتساع مملكة مقدونيا إلى حد جعلها أكبر مساحة من أى مملكة أخرى فى بلاد اليونان ، مما كان يغرى الملك فيليب أن يضم إلى مملكته كل المدن اليونانية . وكانت المدن اليونانية تقاوم رغبته إلى درجة أنها كانت تتحالف وتتعاون لتقديم المساعدة الحربية إلى أى مدينة يشرع الملك فيليب فى ضمها إلى مملكة مقدونيا ، وكانت أثينا بوجه خاص تحرص على ذلك كل الحرص .

وكان ديموستين مواطنا يونانيا من أهل أثينا ، وكان معاصرا للملك فيليب ، وتدرب على إتقان الخطابة فى مطلع شبابه لكى يتمكن من استرداد ميراثه من الأوصياء عليه فى ساحة المحكمة فى أثينا ، كما درس القانون ، وبرع ديموستين فى مجال الخطابة ، وفى مجال القانون . وإجادة الخطابة ، ودراسة القانون يفضيان لا محالة إلى ممارسة السياسة ، وأصبح ديموستين من أشهر الخطباء والساسة فى أثينا .

هكذا اكتملت عناصر المواجهة بين قائد عسكرى متمرس بتجارب القتال هو فيليب ملك مقدونيا وخطيب سياسى هو ديموستين الزعيم السياسى وخطيب أثينا . كان الملك فيليب فى مقدونيا يشترى أقوى الخيول وأجود أنواع السهام والحراب والسيوف ، ويدرب رجاله على فنون القتال . وكان ديموستين قد تدرب على الخطابة منذ نعومة أظافره ، وكان يضع الحصى فى فمه ويتدرب على الكلام، وقد أزال نصف شعر رأسه فى حجرة محفورة تحت الأرض، كما كان يصعد جبلا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت عال ليتعود على التحكم فى نبرات صوته

يصل به من أعلى طبقات إلى أدناها ؛ ليتمكن من مخاطبة الجماهير المحتشدة الصاخبة ليستولى على أسماعهم بنبرات الصوت العالية ، وليلقى إلى أسماعهم بالأفكار المهمة بنبرات صوت هادئة بعد أن يكونوا قد أسلسوا له قيادهم ، ليتمكن ديموستين من أن يلقى فى أذهانهم ما يشاء .

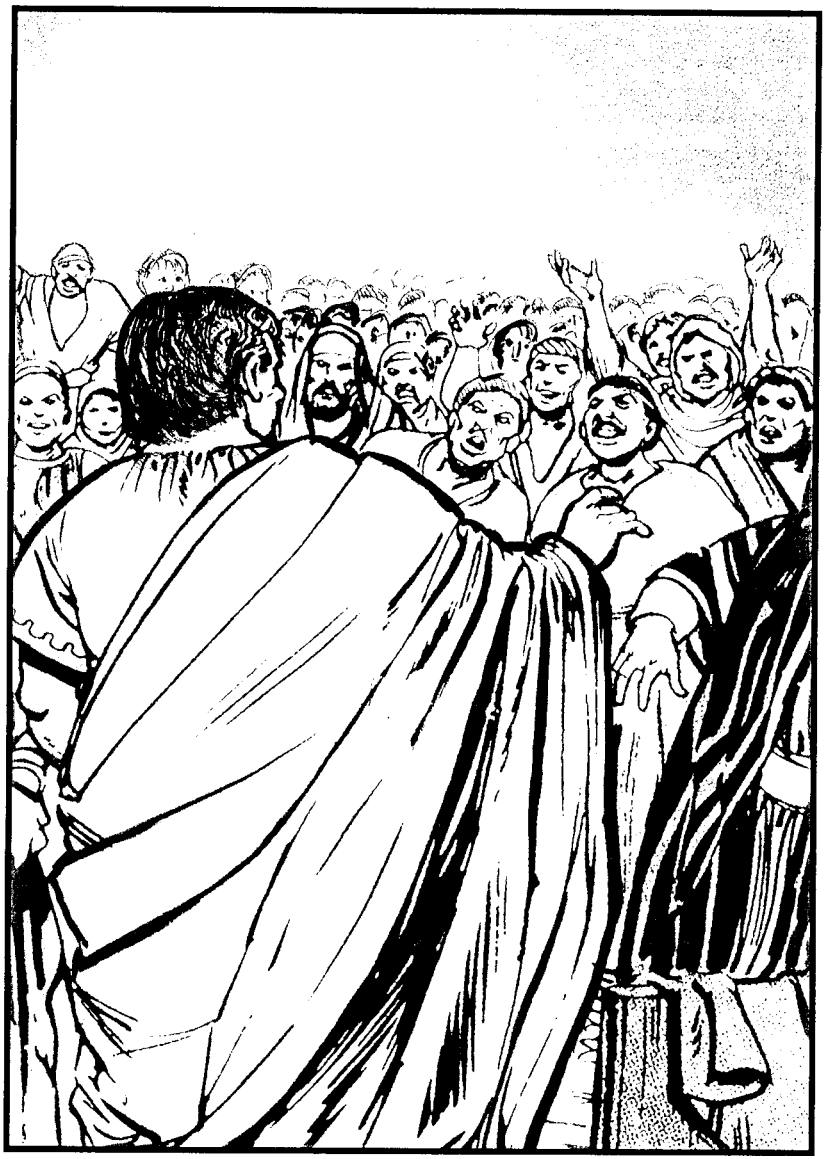

"كان ديموستين يستولى على أسماع الجماهير بنبرات صوته العالية ويلقى فى أذهانهم ما يشاء من أفكار"

كانت أثينا آنذاك تعيش عصرا من أزهى عصورها بعد أن نجحت نهائيا فى قيادة اليونان لدحر غزوات الفرس ، وازدهرت تجارتها برا وبحرا ، وعظمت ثروات أهلها، وازدانت منازلها بكل ما تضفيه الثروات الطائلة على المبانى من أسباب ومظاهر الزينة ، وتمكن بركليس من أن يخطط لازدهار أثينا وأرسى فيها أسس نظام ديموقراطى بسيط ، ولكنه كان يكفل الحرية الكاملة لكل مواطن أثينى لدرجة أن أحد رجال أثينا كان يتتبع خطوات بركليس ، وهو يرأس مدينة أثينا ويكيل له الشتائم والسباب دون أن يرد عليه بركليس بكلمة واحدة حتى وصل بركليس إلى منزله عند بدء حلول ظلام الليل . وفوجئ الرجل الذى كان يكيل له الشتائم والسباب بخادم يخرج من منزل بركليس وهو يحمل مصباحا فى يده ويقول للرجل : "أمرنى سيدى بركليس أن أضىء لك الطريق فى رجوعك إلى منزلك لحلول الظلام!"

وكان يحكم أثينا مجلس أثينى عام يضم خمسمائة عضو يعقد جلساته فى سوق المدينة بمشاركة كل مواطن أثينى ما دام من أهل أثينا ، وما دام قد ولد على أرضها من أبوين أثينيين . وأصبح ديموستين من أبرز زعماء ذلك المجلس الأثينى نظرا لبراعته فى الخطابة واهتمامه بالصعوبات والمشكلات التى كانت تظهر فى حياة أهل أثينا .

ولاحظ ديموستين بثاقب نظره أنه من الضرورى النهوض بهمم وروح الشعب الأثينى الذى استسلم لحياة اللهو والترف وفقد الحماس للعمل الوطنى، والحمية والاستعداد للدفاع عن الوطن ضد أعداء كان ديموستين يرى أنهم يهددون استقلال وحرية الشعب الأثينى .

ونادى ديموستين بضرورة أن تهتم أثينا ببناء قوة عسكرية تدافع عن استقلالها ، ونادى بضرورة إصلاح القوانين وإجراءات التقاضى ، كما نادى بضرورة أن تساعد أثينا كل مدينة يونانية تتعرض للعدوان حتى لا تزداد قوة إحدى المدن

اليونانية بالسيطرة على المدن الأخرى لتصبح خطـرا كبـيرا علـى اسـتقلال أثينـا ذاتها ، وكأن ديموستين بذلك كان يطبق مبدأ ضرورة الحفاظ على توازن القوى بين الدول الذى يجرى تطبيقه فى السياسة الحديثـة . وكـان ديموسـتين ينـادى بضـرورة التمسك بالأسلوب الديموقراطى الذى يوفر الحريـة لكـل مواطـن . ومـن أقوالـه المأثورة التى ظلت باقية على مدار التاريخ فـى هـذا الصـدد قولـه : " إن الظلـم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبدا أن تـؤدى إلى قـوة حقيقيـة . مـن الجـائز أن تؤدى إلى سيادة وقتية ، ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شـيدته مـن أحـلام . وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكـون قويـة متينـة ، كذلـك يجـب أن يكون شأن كل سياسة لتقوم على دعائم الصدق والشرف " .

ولا ريب أن ديموستين كـان يلمـح فـى ذلـك إلى سياسـة الملـك فيليـب ملـك مقدونيا . ولم يلبث ديموستين عندما استفحل خطر فيليب ملك مقدونيـا أن جعـل خطبـه صريحـة فـى المنـاداة بضـرورة أن تتصـدى أثينـا بكـل قـوة لخطـر التوسـع العسكرى المقدونى فى بلاد اليونان ، وأصبحت خطب ديموستين فى هذا الصـدد معروفة فى التاريخ باسم "الفيليبينيات" أى الخطب التى ألقاهـا ديموسـتين ضـد الأطماع التوسعية للملك المقدونى فيليب والـد الإسـكندر الأكـبر ، ومـن ذلـك خطبته الشهيرة التى قال فيها :

" أيها الأثينيون ! إلى متى يطول سكوتكم وإخلادكـم إلى الكسـل والتقـاعس والتوانـى ؟! متـى تـدب الحيـاة فـى عروقكـم ويسـرى الشـعور بـالواجب فـى أعصابكم؟! ماذا تنتظرون ؟! هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ وأى دافع يلزم لدفع النفوس الحرة الأبيـة أقـوى مـن تـهديد مجدهـا بـالزوال وشـرفها بالضياع وكلمتها بالتفرق ؟ .

إنه لعار لن يفارقكم أبد الدهر ولن يمحوه الموت . هل الوطنية هى أن تذهب هنا وهناك ليسأل أحدكم الآخرين عن آخر انتصارات وأنباء صحة فيليب ؟ .

هل هنالك نبأ أكثر صدقا من أن مقدونيا تسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعا ؟ لماذا لا تمتشقون بأنفسكم السلاح ؟ هل تريدون الاعتماد على الجنود المرتزقة تستأجرونهم بأموالكم ليدافعوا عنكم ، ثم يهربون من أمام العدو المهاجم لكم ؟ نريد رجالا أحرارا من أبناء أثينا أنبتتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى نصرها وعزها ، ويرون شقاءهم فى هزيمتها وذلها . فوق أرض أثينا كانت بداية حياتهم، وفوق أرضها تكون نهاية حياتهم .

أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى . إن الحروب لا ضابط لها إلا امتلاك أسباب القوة والانتصار عند خوض الحروب . هل أنتم تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة عليكم فجأة ، فيضيع الوقت فى المشاورات وكيفية استدعاء الجنود وتدبير نفقات شراء الأسلحة والخيول حتى تفوت الفرصة وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نصل لنجدتها ؟ وقعنا فى ذلك الخطأ عندما لم تكن لدينا تجارب فى الحروب .

أما الآن ، وقد سبق لنا الانتصار فى الحروب وفى الدفاع عن الوطن وقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، وأصبح فيليب على أبوابنا فمن الضرورى أن نبادر إلى تغيير نمط حياتنا المتخاذل لنبادر إلى درء الخطر عن الوطن ... "

كلمات تصلح لكل مكان وزمان يهدد فيه خطر خارجى توسعى أى وطن من الأوطان . ولقد أفلح ديموستين - اعتمادا على بلاغته الخطابية - فى إثارة العقبات فى وجه التوسع العسكرى لمقدونيا فى عهد الملك فيليب ، ولا ريب فى أن خطب ديموستين البليغة قد جعلت الإسكندر الأكبر عندما تولى الحكم بعد مقتل أبيه ينصرف بفكره عن محاولة السيطرة على المدن اليونانية بوجه عام لكى يتجه فى فتوحاته الحربية شرقا نحو الأناضول ، وممتلكات الإمبراطورية الفارسية بدلا من أن يتجه بها جنوبا نحو المدن اليونانية .

".. كان الإسكندر ـ ابن الرابعة عشرة ـ متوسط
الطول ، أزرق العينين ، مستقيم الأنف جميل المظهر ،
مهيب المنظر رغم حداثة سنه"